الصباح الإسلامية
08
العدد 2395 - السنة الثامنة
الجمعة 11 جمادى الأولى 1437 - الموافق 19 فبراير 2016
Friday 19 February 2016 - No.2395 - 8th Year

الإمام ابن القيم يجيب عن السؤال المهم

كيف تقر عينك بالصلاة؟

■ الناس في الصلاة خمس مراتب: الإخلاص والصدق والنصح والمتابعة والاقتداء والإحسان والتقصير

■ إذا أراد الله أن يرحم عبده يوم القيامة وهبه نعمه وغفر سيئاته وضاعف حسناته

الصلاة قرة عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيها من مناجاة من لا تقر العيون، ولا تطمئن القلوب، ولا تسكن النفوس الا اليه، والتنعم بذكره، والتذلل والخضوع له، والقرب منه، ولا سيما في حال السجود، وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة». فاعلم بذلك أن راحته في الصلاة كما أخبر أن قرة عينه فيها، فأين هذا من قول القائل: نصلي ونستريح من الصلاة!

فالمحب راحته وقرة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك، بل الصلاة كبيرة شاقة عليه، اذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلص منها، وأحب الصلاة اليه أعجلها وأسرعها، فانه ليس له قرة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، والعبد اذا قرت عينه بشيء واستراح قلبه به فاشق ما عليه مفارقته، والمتكلف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشق ما عليه الصلاة، وأكره ما اليه طولها، مع تفرغه وصحته وعدم اشتغاله!

ومما ينبغي أن يعلم: أن الصلاة التي تقر بها العين ويستريح بها القلب هي التي تجمع ستة مشاهد.

المشهد الأول: الإخلاص

وهو أن يكون الحامل عليها والداعي اليها رغبة العبد في الله، ومحبته له، وطلب مرضاته، والقرب منه، والتودد اليه، وامتثال أمره، بحيث لا يكون الباعث له عليها حظاً من حظوظ الدنيا البتة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى، محبة له وخوفا من عذابه، ورجاء لمغفرته وثوابه.

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح

وهو أن يفرغ قلبه لله فيها، ويستفرغ جهده في اقباله فيها على الله، وجمع قلبه عليها، وايقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهرا وباطنا، فان الصلاة لها ظاهر وباطن: فظاهرها: الأفعال الشاهدة والأقوال المسموعة. وباطنها: الخشوع والمراقبة وتفريغ القلب لله والاقبال بكليته على الله فيها، بحيث لا يلتفت قلبه عنه الى غيره، فهذا بمنزلة الروح لها، والأفعال بمنزلة البدن، فاذا خلت من الروح كانت كبدن لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يواجه سيده بمثل ذلك! ولهذا تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني.

والصلاة التي كمل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نور وبرهان كنور الشمس حتى تعرض على الله فيرضاها ويقبلها، وتقول: حفظك الله كما حفظتني.

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والاقتداء

وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي صلى الله عليه وسلم ويصلي كما كان يصلي؛ ويعرض عما أحدث الناس في الصلاة، من الزيادة والنقصان، والأوضاع التي لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء منها ولا عن أحد من أصحابه؛ ولا يقف عند أقوال المرخصين الذين يفتون مع أقل ما يعتقدون وجوبه، ويكون غيرهم قد نازعهم في ذلك وأوجب ما أسقطوه، ولعل الأحاديث الثابتة والسنة النبوية من جانبه ولا يلتفتون الى ذلك، ويقولون: «نحن مقلدون لمذهب فلان» وهذا لا يخلص عند الله ولا يكون عذرا لمن تخلف عما علمه من السنة عنده، فان الله - سبحانه - انما أمر بطاعة رسوله واتباعه وحده ولم يأمر باتباع غيره، وانما يطاع غيره اذا أمر بما أمر به الرسول، وكل أحد سوى الرسول صلى الله عليه وسلم فمأخوذ من قوله ومتروك.

وقد أقسم الله - سبحانه - بنفسه الكريمة انا لا نؤمن حتى نحكم الرسول فيما شجر بيننا، وننقاد لحكمه ونسلم تسليما. فلا ينفعنا تحكيم غيره والانقياد له، ولا ينجينا من عذاب الله، ولا يقبل منا هذا الجواب اذا سمعنا نداءه - سبحانه - يوم القيامة ماذا أجبتم المرسلين [القصص: 65] فانه لا بد أن يسألنا عن ذلك، ويطالبنا بالجواب، قال تعالى: فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين [الأعراف: 6]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أوحي الي أنكم بي تفتنون وعني تسألون» [صحيح الجامع: 1361]، يعني المسألة في القبر. فمن انتهت اليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركها لقول أحد من الناس فسيرد يوم القيامة ويعلم.

المشهد الرابع: مشهد الإحسان

وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه. وهذا المشهد انما ينشأ من كمال الايمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله - سبحانه - فوق سمواته، مستويا على عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويدبر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد اليه، وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه. فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيوما حيا، سميعا بصيرا، عزيزا حكيما، آمرا ناهيا، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الاحسان أصل أعمال القلوب كلها، فانه يوجب الحياء، والاجلال، والتعظيم، والخشية، والمحبة، والانابة، والتوكل، والخضوع لله - سبحانه - والذل له؛ ويقطع الوسواس وحديث النفس، ويجمع القلب والهم على الله.

فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الاحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

المشهد الخامس: مشهد المنة

وهو أن يشهد أن المنة لله - سبحانه -، كونه أقامه في هذا المقام وأهله له ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته. فلولا الله - سبحانه - لم يكن شيء من ذلك، كما كان الصحابة يحدون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: «والله لولا الله ما اهتدينا xxx ولا تصدقنا ولا صلينا» قال الله تعالى: «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين» [الحجرات: 17] فالله - سبحانه - هو الذي جعل المسلم مسلما، والمصلي مصليا، كما قال الخليل صلى الله عليه وسلم: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» [البقرة: 128]، وقال: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي» [ابراهيم: 40]. فالمنة لله وحده في أن جعل عبده قائما بطاعته. وكان هذا من أعظم نعمه عليه.

وقال تعالى: «وما بكم من نعمة فمن الله» [النحل: 53]، وقال: «ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون» [الحجرات: 7].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد وكلما كان العبد أعظم توحيدا كان حظه من هذا المشهد أتم.

وفيه من الفوائد انه يحول بين القلب وبين العجب بالعمل ورؤيته، فانه اذا شهد أن الله - سبحانه - هو المان به، الموفق له، الهادي اليه، شغله شهود ذلك عن رؤيته، والاعجاب به، وأن يصول به على الناس، فيرفع من قلبه: فلا يعجب به، ومن لسانه: فلا يمن به ولا يتكثر به، وهذا شأن العمل المرفوع.

ومن فوائده أنه يضيف الحمد الى وليه ومستحقه، فلا يشهد لنفسه حمدا بل يشهده كله لله، كما يشهد النعمة كلها منه، والفضل كله له، والخير كله في يديه، وهذا من تمام التوحيد، فلا تستقر قدمه في مقام التوحيد الا بعلم ذلك وشهوده، فاذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدا، واذا صار لقلبه مشهدا أثمر له من المحبة والأنس بالله والشوق الى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا البتة.

وما للمرء خير في حياته اذا كان قلبه عن هذا مصدوداً، وطريق الوصول اليه عنه مسدوداً، بل هو كما قال تعالى: «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» [الحجر: 3].

المشهد السادس: مشهد التقصير

وأن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه فهو مقصر، وحق الله - سبحانه - عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يقابل به من الطاعة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأن عظمته وجلاله - سبحانه - يقتضي من العبودية ما يليق به.

واذا كان خدم الملوك وعبيدهم يعاملونهم في خدمتهم بالاجلال لهم، والتعظيم، والاحترام، والتوقير، والحياء، والمهابة، والخشية، والنصح، بحيث يفرغون قلوبهم وجوارحهم لهم، فمالك الملوك ورب السموات والأرض أولى أن يعامل بذلك، بل بأضعاف ذلك.

واذا شهد العبد من نفسه أنه لم يوف ربه في عبوديته حقه، ولا قريبا من حقه، علم تقصيره، ولم يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقه، وأنه الى أن يغفر له العبودية ويعفو عنه فيها أحوج منه الى أن يطلب منه عليها ثوابا، وهو لو وفاها حقها كما ينبغي لكانت مستحقة عليه بمقتضى العبودية، فان عمل العبد وخدمته لسيده مستحق عليه بحكم كونه عبده ومملوكه، فلو طلب منه الأجرة على عمله وخدمته لعده الناس أحمق وأخرق، هذا وليس هو عبده ولا مملوكه على الحقيقة، وهو عبد الله، ومملوكه على الحقيقة من كل وجه.

فعمله وخدمته مستحق عليه بحكم كونه عبده، فاذا أثابه عليه كان ذلك مجرد فضل ومنة واحسان اليه لا يستحقه العبد عليه.

ومن ههنا يفهم معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «قاربوا وسددوا اعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: يا رسول الله ولا أنت، قال: «ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» [رواه مسلم: 7295].

وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «يخرج للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه حسناته، وديوان فيه سيئاته، وديوان النعم التي أنعم الله عليه بها، فيقول الرب - تعالى - لنعمه: خذي حقك من حسنات عبدي، فيقوم أصغرها فتستنفذ حسناته، ثم تقول: وعزتك ما استوفيت حقي بعد. فاذا أراد الله أن يرحم عبده وهبه نعمه عليه، وغفر له سيئاته، وضاعف له حسناته». وهذا ثابت عن أنس. وهو أدل شيء على كمال علم الصحابة بربهم وحقوقه عليهم، كما أنهم أعلم الأمة بنبيهم وسنته ودينه، فان في هذا الأثر من العلم والمعرفة ما لا يدركه الا أولو البصائر العارفون بالله وأسمائه وصفاته وحقه. ومن هنا يفهم قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي رواه أبو داود، والامام أحمد، من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما: « ان الله عز وجل لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم». [قال الألباني: صحيح الظلال: (245)]. وملاك هذا الشان أربعة أمور: نية صحيحة، وقوة غالبة، يقارنهما: رغبة، ورهبة.

فهذه الأربعة هي قواعد هذا الشان، ومهما دخل على العبد من النقص في ايمانه وأحواله وظاهره وباطنه فهو من نقصان هذه الأربعة أو نقصان بعضها.

فليتأمل اللبيب هذه الأربعة الأشياء، وليجعلها سيره وسلوكه، ويبني عليها علومه وأعماله وأقواله وأحواله، فما نتج من نتج الا منها، ولا تخلف من تخلف الا من فقدها.

والله أعلم، والله المستعان، وعليه التكلان، واليه الرغبة، وهو المسؤول بأن يوفقنا وسائر اخواننا من أهل السنة لتحقيقها علما وعملا، انه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقال في الوابل الصيب الناس في الصلاة على مراتب خمسة: الأولى مرتبة الظالم لنفسه، المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثانية من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالثة من حافظ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه: لئلا يسرق منه صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابعة من اذا قام الى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها: لئلا يضيع منها شيئا، بل همه كله مصروف الى اقامتها كما ينبغي، واكمالها واتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامسة من اذا قام الى الصلاة قام اليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل، ناظراً بقلبه اليه، مراقبا له، ممتلئا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز و جل، قرير العين به.

فالقسم الأول معاقبٌ، والثاني محاسبٌ، والثالث مكفّر عنه، والرابع مثابٌ، والخامس مقربٌ من ربه؛ لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه - أيضا - به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

من قصص الأذكياء عبر التاريخ

من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه

قال ابن القيم -رحمه الله- في «مدارج السالكين»: من منازل «إيّاك نَعْبُدُ وإيّاك نَستَعين» منزلة المراقبة، وهي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم، اليقين بذلك هي المراقبة،وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر اليه، سامع لقوله، مطلع على عمله، ومن راقب الله في خواطره؛ عصمه الله في حركات جوارحه، قال أحدهم: والله اني لأستحي أن ينظر الله في قلبي وفيه أحد سواه، قال ذو النون: علامة المراقبة، ايثار ما أنزل الله،وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال ابراهيم الخوّاص: المراقبة، خلوص السرّ والعلن لله جل في علاه،من علم، أن الله يراه حيث كان، وأنّ الله مطلع على باطنه وظاهره وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلوته، أوجب له ذلك العلم واليقين، ترك المعاصي والذنوب، أو كما قال، الشافعي:

أعزّ الأشياء ثلاثة،الجود من قلة،والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى أو يُخاف، وقالوا: أعظم العبادات مراقبة الله في سائر الأوقات.

قال ابن القيم: والمراقبة هي التعبد باسمائه :الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء وتعبّد بمقتضاها حصلت له المراقبة،اذا أردت أن تعرف مدى ايمانك، فراقب نفسك في الخلوات، راقب نفسك في الخلوات، أنّ الايمان لا يظهر في صلاة ركعتين، أو صيام نهار، بل يظهر في مجاهدة النفس والهوى، والله ما صعد يوسف عليه والسلام ولا سعد، الا في مثل ذلك المقام، قال تعالى «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى»، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، وآخر دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: اني أخاف الله، آف للذنوب، آف للذنوب، ما أقبح آثارها، وما أسوأ أخبارها، وهل تحدث الذنوب الا في الغفلات، والخلوات؟ يا من لا يصبر لحظة عما يشتهي، قل من انت ؟!، وما علمك؟!، والى أي مقام ارتفع قدرك؟!، بالله عليك، أتدري من الرجل؟!، الرجل والله، من اذا خلا بما يحب من المحرم، وقدر عليه، تذكر، وتفكر، وعلم، أنّ الله يراه، ونظر الى نظر الحق اليه، فاستحى من ربه، كيف يعصيه وهو يراه، كيف يعصيه وهو يراه،هيهات، هيهات، والله، لن تنال ولاية الله، حتى تكون معاملتك له خالصة، والله، لن تنال ولايته، حتى تترك شهواتك، وتصبر على مكروهاتك، وتبذل نفسك لمرضاته، الله، الله، في مراقبة الحق جل في علاه،الله، الله، في الخلوات، الله، الله، في النيات، فانّ عليكم من الله عيناً ناظرة، قال جل وعلا «وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين. إنه هو السميع العليم».

من قصص الأذكياء عبر التاريخ

يعبر الحدود حاملاً التراب

قام بها أحد النبلاء الفرنسيين.. فذات يوم عاد لقصره قلقا متجهم الوجه فسألته زوجته عن السبب فقال: أخبرني الماركيز كاجيلسترو «وكان معروفا بممارسة السحر والعرافة» انك تخونينني مع أقرب أصدقائي فصفعته بلا شعور.. فقال الزوج بهدوء: وهل أفهم من هذا أنني يجب علي ألا أصدق ادعاءه؟! فقالت: بالطبع يجب ألا تصدق كلامه، فقال لها لكنه هددني بقوله «ان كان كلامي صحيحا فستستيقظ غدا وقد تحولت الى قطة سوداء»!.. وفي صباح اليوم التالي استيقظت الزوجة فوجدت بجانبها قطة نائمة فصرخت من الرعب والفزع ثم عادت وركعت أمامها تعتذر وتطلب منها الصفح والغفران.. وفي تلك اللحظة خرج الزوج من خلف الستارة وبيده سيف مسلط!.

وعنصر الذكاء هنا هو :استغلال خرافات الآخرين والاتجاه بتفكيرهم لنهاية تخدم مصلحتك!.

القصة الخامسة ذكاء المحامي وفطنة القاضي

عندما كادت هيئة المحكمة أن تنطق بحكم الاعدام على قاتل زوجته والتي لم يتم العثور على جثتها رغم توافر كل الأدلة التي تدين الزوج -.. وقف محامي الدفاع يتعلق بأي قشة ليثبّط موكله.. ثم قال للقاضي: ليصدر حكما بالاعدام على قاتل.. لابد من أن تتوافر لهيئة المحكمة يقين لا يقبل الشك بأن المتهم قد قتل الضحية، والآن.. سيدخل من باب المحكمة... دليل قوي على براءة موكلي وعلى أن زوجته حية ترزق!. وفتح باب المحكمة واتجهت أنظار كل من في القاعة الى الباب، وبعد لحظات من الصمت والترقب.. لم يدخل أحد من الباب.. وهنا قال المحامي: الكل كان ينتظر دخول القتيلة! وهذا يؤكد أنه ليست لديكم قناعة مئة في المئة بأن موكلي قتل زوجته! وهنا هاجت القاعة اعجابا بذكاء المحامي.. وتداول القضاة الموقف، وجاء الحكم المفاجأة، حكم بالاعدام لتوافر يقين لا يقبل الشك بأن الرجل قتل زوجته! وبعد الحكم تساءل الناس كيف يصدر ملّ هذا الحكم، فرد القاضي ببساطة: عندما أوحى المحامي لنا جميعا بأن الزوجة لم تقتل ومازالت حية، توجهت أنظارنا جميعا الى الباب منتظرين دخولها الا شخصا واحدا في القاعة! انه الزوج المتهم! لأنه يعلم جيدا أن زوجته قتلت، وأن الموتى لا يسيرون ذكاء بذكاء ولكن الحق حتما في النهاية سينتصر.